والآيات التي تعذر العذاب لولا بعث الرسل، لا تعني إلا العذاب الناتج عن عصيان هؤلاء الرسل، لا مطلق العذاب المستحق بعصيان سائر الرسل: شعوراً وفطرة وعقلاً! وإنما ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1] حجة أننا كانت لنا هدى فوق ما تهدينا إليها عقولنا بالرسل فلماذا لم تبعث إلينا رسولاً، ثم وحجة ألّا عقاب في عصيان الرسل ولم تبعث الرسل! بل ولا عصيان إذاً في خلافهم قبل بعثهم، بل لا يحصل إذاً خلاف.

أو تعذر عذاب الاستيصال الناتج عن التخلف الفاحش المتهدم للرسالات.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[2].

علّه أو أنه المقصود هنا فحسب، أو هو القدر المتيقن كما توحي له «ما كنا» كـ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم﴾ حيث تعطف إلى العذاب الماضي وهو الاستئصال في الدنيا، إيحاء برحمة رحيمية في سنة دائبة إلهية ألا عذاب في الأولى حتى يبعث رسولاً ثم يُعصى بما لا تتحملها رسالة ولا حياة إنسانية، وكما توحي له التالية المقررة لظرف هكذا عذاب: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً . . . وَكَمْ أَهْلَكْنَا . . .﴾ إن إهلاك القرى لا يراد إلا في هكذا عصيانات.

إذاً ففي عصيان وحي الشعور - كما للطير والدواب - عذاب قدره يوم الحشر قليلاً، دون الدنيا والبرزخ إلا قليلاً، وفي عصيان وحي الفطرة والعقل كذلك وأكثر قد يكفيه عذاب في البرزخ. وفي عصيان غير فاحش لوحي النبوة عذاب في البرزخ أو في الحشر، ثم وفي عصيان فاحش لوحي

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.
(٢) سورة طه، الآية: ١٣٤.

النبوة حيث يهدم أركان بناية المجتمع عذاب الاستئصال في الدنيا ثم وفي البرزخ والحشر عذاب دائب أليم، فالمعذب في الدنيا للعصيان الطغيان يعذب بالأحرى في البرزخ والأخرى، وليس كل معذب فيهما يعذب في الأولى.

وقد تشمل ﴿مَا كُنَّا﴾ عذابي الأولى والاخرى في نطاق التكاليف الرسالية، لا مطلق العذاب وإن في نطاق التكاليف الثلاثة الأخرى[١] ولا خصوص الأولى، فكما العذاب الأدنى في التخلف عن وحي الشعور ليس إلا في حاضر الشعور، ثم أعلى منه في الفطرة، فأعلى في العقل، كذلك الأعلى تخلفاً عن وحي الشريعة في العصيانات العادية، ثم التخلف القمة في الأولى قبل الأخرى عذاب الاستئصال والتدمير، وليس إلا في حاضر الرسالة. للقاعدة العقلية «قبح العقاب بلا بيان» الشاملة له ولما قبله.

فلا تعني ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إلا بيان الرسالة ببلاغها، إن للمترفين الطاغين فعذاب الاستئصال هنا أم للناس أجمعين فعذاب في الأخرى، وإن كان القدر المتيقن هو الأولى وفي هامشه الأخرى، ثم العصيان في أية رسالة من الرسالات الخمس يخلف وجوب العقاب إذا كان ظلماً وتعدياً على الخلق أياً كان، أو جوازه إذا كان تقصيراً بحق الخالق دون خلقه، ولم يكن في تركه تسوية ظالمة بين المطيع والعاصي، فالسماح عن بعض المعاصي هو قضية الفضل والرحمة الواسعة كما في المستضعفين ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾[٢] هذا السماح ليس ظلماً وتسوية، وأما السماح عن أي ظلم بالنسبة للخلق دونما أي مقابل فهو ظلم بعيد عن ساحة العدل الرباني.

(١) شعوراً وفطرة وعقلاً.
(٢) سورة النساء، الآيتان: ٩٨، ٩٩.

و﴿حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ تعني الرسالة البالغة إلى المكلفين بأحد شطريها، ثم الثلاث الأخرى كذلك البالغة إلى مكلفيها، ففي كل رسالة بالغة على حدها حجة، وفي التخلف عنها جواز أو وجوب العذاب، من دنيوي بسيط إلى برزخي بمراتبه، إلى أخروي كذلك، وإلى عذاب الاستئصال في الدنيا إضافة إلى الأخرى.

ثم وبعث الرسول يحمل أمرين: بلوغ المرسل إليهم وبلاغ الرسالة، حيث الرسالة إلى غير البالغ قاصرة المفعول، والرسالة غير البالغة إلى البالغين ليست رسالة، وكما للبلوغ درجات كذلك للرسالة إلى البالغين درجات، والثواب والعقاب يقدران على قدر الدرجات: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾[1]: بلغ هو وبلغته الرسالة.

والبلاغ يتطلب أمرين: بلوغ المبلَّغ إليه عقلاً فتكليفاً، ووصول الرسالة إليه واضحاً وبليغاً، لذلك فمن الناس من ليس عليه أي تكليف كالمجانين، ومنهم من يكلفون تكاليف حسية دنيوية كما يعقلون، كالصغار العقلاء، ومنهم من يكلفون كذلك وقسماً من الأخروية دون إطلاق كالسفهاء وسائر المستضعفين، والأخيران عسى الله أن يعفو عنهم إذا لم تكن السفاهة والاستضعاف بذات أيديهم وتقصير منهم، حيث التقصير أياً كان يتطلب جزاءً على قدره فـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّٗا غَفُورٗا ٩٩﴾[2].

فالرسالة غير البالغة إلى المكلفين دون تقصير منهم، أو البالغة إلى غير

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٩.
(٢) سورة النساء، الآيات: ٩٧ - ٩٩.

البالغين كالمجانين ثم البله ثم المستضعفين القاصرين، هذه الرسالة لا تحتم أي عذاب في نطاقها وكما لا تجوزه خلافاً لما يروى[١].

كما وأن البيان الرسالي كلما ازداد ازداد تحتم العقاب وقدره، كالحاضرين بلاغ الرسالة، والذين منحوا عقلاً أو علماً زائداً «فإنما يداق الله العباد يوم القيامة على قدر عقولهم»[٢]: وعْيِهم للبلاغ ثم ويعاكسه كلما نقص البيان الرسالي أو انتقصه المرسل إليهم قصوراً، كالغائبين البعيدين عن بلاغ الرسالة، والذين لم يمنحوا عقلاً راجحاً أو علماً زائداً، فقضية العدل الرباني هو العقاب قدر التخلف وكيانه وأثره، مع ما تقتضيه الرحمة الإلهية لانتقاص العذاب أو تركه ما لم يخالف العدل، فالثواب من آثار الفضل والرحمة والعقاب من آثار العدل والرحمة.

والأحاديث المروية عن النبي ﷺ أن المعذورين هنا يكلفون يوم القيامة فيثابون إن أطاعوا ويعذبون إن عصوا، إنها تخالف الضرورة

(١) في الدر المنثور ٤: ١٦٨ بإسناده عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال: أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً ورجل أحمق ورجل هرم ورجل مات في الفطرة، فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً وأما الأحمق فيقول: رب جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً وأما الذي مات في الفطرة فيقول: رب ما آتاني لك رسول فيأخذ مواثيقهم ليطعنه ويرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها كانت عليهم برداً وسلاماً ومن لم يدخلها اسحب إليها.
وفيه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: يؤتى يوم القيامة بأربعة بالمولود والمعتوه ومن مات في الفطرة والشيخ الهرم الفاني كلهم يتكلم بحجته فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من جهنم ابرزي ويقول لهم كنت أبعث عبادي رسلاً من أنفسهم وإني رسول نفسي إليكم فيقول لهم: ادخلوا هذه، فيقول: من كتب عليه الشقاء يا رب أندخلها ومنها كنا نفر؟، قال: وأما من كتب له السعادة فيمضي فيقتحم فيها فيقول الرب: قد عانيتموني فعصيتموني فأنتم لرسلي أشد تكذيباً ومعصية فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار.

(٢) الكافي باب العقل والجهل عن الإمام الصادق عليه السلام.

الإسلامية القائلة: «إن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل» المستفاد من آيات بينات وتواتر الروايات.

ثم لو أعطوا هنالك عقولاً كافية لم يكونوا ليعصوا الله تعالى وهو رسول نفسه دون حجاب الرسالات الأخرى. وهو يوم تكشُّف الحقائق وهم يرون مع ما يرون - الجنة والنار!.

ثم إن ﴿وَمَا كُنَّا﴾[1] إنما تنفي عذاب الاستئصال ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إن جواب هكذا عذاب ليس إلا في ظرف بعث رسول، لا أن بعث رسول وعصيانه أياً كان يقتضي هكذا عذاب، وإنما إذا أمر المترفون ففسقوا، فـ ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ...﴾ بيان لنطرف عذاب الاستئصال.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾:

أسئلة عدة تطرح حول مواضيع من هذه الآية إذ كثرت الأقاويل حول الإجابة عنها:

١ - كيف تتقدم إرادة الإهلاك على موجبه ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ وموجب الإهلاك ليس إلا قبل إرادته، فإن كانت متعلقة بعذاب مستحق بغير هذا الفسق لم تكن لها صلة بهذا الفسق، وإن كانت به نفسه فكيف تتقدمه، أو أنها إرادة لإهلاك قرية دون صلة لها بأي فسق؟ ثم كيف يتخلف مراد الله عن إرادته - وهي نافذة - بما يقدِّمه من تقدير للفسق؟

(١) قد تكون «كنا» هنا منسلخة عن أي زمان؟ والعذاب واللاعذاب وبعث الرسل زماني!... أو أنها منسلخة عن مضيها فتشمل مثلث الزمان، فهي إذاً تنفي مربع العذاب في مثلث النشآت، الناتج عن عصيان الرسل؟ وهذا أشمل الاحتمالات وأجملها!... أو أنها تعني خصوص الماضي دون نفي للمستقبل، أن السنة الإلهية مستقرة في اللاعذاب الاستئصال في ماضي الأولى أو مستقبلها، ثم الأخيرة هي القدر المتيقن والمورد للآيتين بعدها، إلا أن بعث الرسل بمجرده والتخلف عنهم أياً كان لا يقتضي عذاب الاستئصال، اللهم إلا أن يعني ظرف الاستئصال أنه بلاغ الرسل فعصيانهم المتهدم كما توحيه آية المترفين.

أقول: إنها إرادة للإهلاك بفسوق القرية عامة، حيث الآية السالفة بينت مورد استحقاق العذاب أنه في ظرف بعث الرسول وعصيانه، فهنا استحقاق قاطع لعذاب الأخرى، واستحقاق جائز لعذاب الأولى لا يتطلب إلا إرادة الإهلاك دون إمضائه فتحقيقه، ومما يوحي بذلك واو العطف في ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ﴾ حيث تعطف إرادة العذاب هذه إلى بعث الرسول فعصيانه.

وإرادة الله منها حتم ومنها دون ذلك، فحتمها لا مردَّ لها ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[1] ودونه فيه مردٌّ وبداء وهي التي لم تكمل بعدُ معداتها، ولا مرد في إرادة التكوين حيث هي حتم ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2] وقد يكون مرد منه أو تصبر حتى يحصل منجزاتها فيما دون هكذا تكوين كإهلاك قرية فاسقة لم تتم منجزات استئصالها كفسوق مترفيها عما أمروا به فيها.

فهنا إرادة للإهلاك بعدها تقدير لتحقيقها: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ فقضاء: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ فإمضاء: ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ كما وقبلها مشية وعلم، وقبل هذه المشية أيضاً تقدير لها هو عصيان القرية للرسول حيث يتطلب عذاباً محتوماً في الأخرى وآخر غير محتوم في الأولى.

فقد علم الله أن أهل هذه القرية فسقت ومن ثم يفسق مترفوها إذا أمروا فيها، فشاء أن يهلكهم فأراده، فقدر ما أراد بما أمر مترفيها ففسقوا فيها، فقضى ما قدر بما حق عليها القول، فأمضى ما قضى ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[3].

وكما سئل الإمام الباقر عليه السلام كيف علم الله؟ قال: علم وشاء وأراد وقدر وقضى وأمضى، فأمضى ما قضى وقضى ما قدر وقدر ما أراد، فبعلمه

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٢) سورة يس، الآية: ٨٢.
(٣) فلمشية العذاب وإرادته تقدير هو عصيان عامة القرية، ولتحقق كلمة العذاب. تقدير هو أن يؤمر مترفوها فيفسقوا فيها.

كانت المشية، وبمشيته كانت الإرادة وبإرادته كان التقدير، وبتقديره كان القضاء وبقضائه كان الإمضاء، فالعلم متقدم على المشية والمشية ثانية، والإرادة ثالثة والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء، فللّه تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء وفيما أراد لتقدير الأشياء، فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء[١].

إنَّ مشيته تعالى هي همه بالشيء وهي ابتداء الفعل، وإرادته هي إتمامه على المشية والثبوت عليها، وتقديره هو الهندسة من الطول والعرض والبقاء، وكما يروى عن أبي الحسن الرضا عليه السلام [٢] فلكل إرادة تقدير حتى تنتهي إلى إرادة محتومة فقضاء وإمضاء والقضاء هو حق القول: تحتم كلمة العذاب ولم تكن قبل هذا التقدير محتومة وإنما جائزة[٣].

(١) التوحيد للصدوق رحمه الله.

(٢) محاسن البرقي عن أبي الحسن عليه السلام ليونس: لا تتكلم بالقدر، قال: إني لا أتكلم بالقدر ولكن أقول: لا يكون إلا ما أراد الله وشاء وقضى وقدر فقال: ليس هكذا أقول ولكن أقول: لا يكون إلا ما شاء الله وأراد وقدر وقضى ثم قال: أتدري ما المشيئة؟ فقال: لا - فقال: همه بالشيء (ابتداء الفعل) أو تدري ما أراد؟
قال: لا قال: إتمامه على المشيئة (الثبوت عليه) فقال أو تدري ما قدر؟ قال: لا قال: هو الهندسة من الطول والعرض والبقاء ثم قال: إن الله إذا شاء شيئاً أراده وإذا أراد قدره وإذا قدره قضاه وإذا قضاه أمضاه الحديث. ورواه مثله من «أن الله» في محاسن البرقي عن أبي عبد الله عليه السلام.
في أصول الكافي ١: ٤٨ ح ٣ عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق؟ قال فقال: الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل وأما من الله تعالى فإرادته إحداثه لا غير ذلك لأنه لا يروي ولا يهم ولا يتفكر وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق فإرادة الله الفعل لا غير ذلك يقول له: كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك كما أنه لا كيف له.
أقول: يعني عليه السلام كما أنه لا كيف لذاته كذلك لا كيف لفاعليته وإن كان مفعوله مكيَّفاً بكيف فإنه فعله، فإرادته من حيث هي لا كيف له كذاته ولكن مراده مكيَّف فافهم.

(٣) إن كلمة العذاب هنا جائزة حين أراد الله إهلاك القرية ولكنها حقت حين فسق مترفوها.

ثم الإرادة حتماً ودونه هي صفة فعل حادثة وليست أزلية وكما في حوار الإمام الرضا عليه السلام مع سليمان المروزي قال عليه السلام : ألا تخبرني عن قول الله عزوجل : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً . . .﴾ يعني بذلك أنه يحدث إرادة؟ قال: نعم - قال: فإذا أحدث إرادة كان قولك: إن الإرادة هي هو أو شيء منه باطلاً، لأنه لا يكون أن يحدث نفسه، ولا يتغير عن حاله تعالى الله عن ذلك! قال سليمان: إنه لم يكن عنى بذلك أنه يحدث إرادة قال عليه السلام : فما عنى به؟ قال: عنى فعل الشيء، قال عليه السلام : ويلك كم تردد في هذه المسألة وقد أخبرتك أن الإرادة محدثة لأن فعل الشيء محدث، قال: فليس لها معنى! قال عليه السلام : قد وصف نفسه عندكم حتى وصفها بالإرادة بما لا معنى له؟! فإذا لم يكن لها معنى قديم ولا حديث بطل قولكم: إن الله عزوجل لم يزل مريداً! قال: إنما عنيت أنها فعل من الله تعالى لم يزل، قال عليه السلام : ألا تعلم أن ما لم يزل لا يكون مفعولاً وقديماً وحديثاً في حالة واحدة؟ فلم يحر جواباً»[١].

٢ - وترى ما هو الأمر هنا؟ وبماذا؟ ولماذا يخص مترفيها؟: فإن كان هناك شرع عم المترفين وسواهم وإلا فلا أمر شرعياً للمترفين؟! الأمر هنا كما في أضرابه تشريعي لا تكويني كما يهرفه من لا يعرف مواضيع الكلام[٢] وهو أمر بالتقوى وترك الطغوى للمترفين ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾: خرجوا عن الطاعة وخالفوا أمرنا، فالنص «أمرنا ففسقوا» لا «أمرناهم بالفسق ففسقوا» وفسق

(١) نور الثقلين ٣: ١٤٥ في عيون أخبار الرضا في باب مجلس الرضا عليه السلام مع سليمان المروزي بعد كلام طول قال الرضا عليه السلام : . . .

(٢) في أمر التكوين تسييراً إجبار بالفسق وما أظلمه إذاً تعذيب المترفين بفسق اضطرهم الله فيه، وأمره تخييراً وهو الإذن في حصول الفسق كجزء أخير للعلة التامة الحاصل بعدما قدم المختار كل اختياراته في عملية الفسق، هذا وإن كان صحيحاً في نفسه ولكنه هنا لا يصح حيث يعم الفساق مترفين وسواهم دون اختصاص بالمترفين.

الأمر هو عصيانه والتخلف عنه، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ...﴾[١] ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢] فإنما ذلكم الشيطان ﴿يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣] وما أقبحه وأهرفه فرية على الرحمن بما يأمر به الشيطان[٤]!

وثم إذا كان أمراً بالفسق - عوذاً بالله - فليكن تطبيقه طاعة تستحق الثواب، فلماذا ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾؟ إذاً فليس إلا فسقاً عن أمر هام يتطلب هكذا تدمير!.

وأما اختصاصه بالمترفين؟ فلأن الأوامر تختلف حسب الظروف والقابليات والمتطلبات فردية وجماهيرية، والمترفون وهم المتوسعون في نعمة حيث يبدلونها نَعمة ونقمة، في دُولة أو دَولة، في مال أو منال في أنفس أو أموال أو أحوال، هؤلاء هم البغاة الطغاة في الأغلبية الساحقة، فالأوامر المتجهة إليهم هي غير ما يوجه إلى غيرهم، إذ لا يؤمر بشيء إلا من عنده ذلك الشيء وليس لغير المترفين ترف حتى يؤمروا في ترفهم سلباً لطغوى الترف وإيجاباً لتقواه، ففي ائتمارهم اعتمار القرى وتعميرها، وفي فسقهم اضطرارها وتدميرها.

فالمترفون هم الذين وسع الله عليهم في نعم امتحاناً وامتهاناً إذ كذبوا بلقاء الآخرة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٥] فلا يترف في نعمة إلا من يتطرف في اللامبالاة ثم يزداد عتواً ونفوراً: ﴿وَٱتَّبَعَ

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٩.
(٤) وكيف يأمر الله بالفسق، وثم إذا أطيع في أمر الفسق يدمر، وما ربك بظلام للعبيد.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[١] كانوا قبل أن يترفوا مجرمين، مجتنين ثمرات الحياة إلى الحيونات فاتبعوا ما أترفوا فيه فكانوا أظلم وأطغى، فهم الناكرون دوماً للرسالات: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[٢] ﴿. . . إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ. . .﴾[٣] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾[٤] ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾[٥].

٣ - وترى هؤلاء المترفون يستحقون بفسقهم التدمير، فما ذنب سائر أهل القرية يشملهم عذاب التدمير، وهناك قرى يخص تدميرها بمترفيها: ﴿. . . وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[٦]؟.

إن عذاب التدمير الاستئصال لا يشمل إلا الظالمين، فإن كانوا مترفين فحق لهم أصلياً، وإن كانوا مستضعفين يفسحون مجالات لفسوق المترفين، متخاذلين أمامهم، لا يدافعون عن حقوقهم ولا يمسكون على أيديهم، وبذلك يعم الفسق، تحللاً للقرية الظالمة بمترفيها وسائر من فيها، وترهلاً لها فتأهلاً لعذاب شامل، فليس المسؤول فيها هنا فقط المترفون، بل والمستضعفون المتخاذلون حيث فسحوا مجالات لهم وتسامحوا عما أترفوا وأفسدوا. . . ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٧] وليس الله

(١) سورة هود، الآية: ١١٦.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٤.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٦٤.
(٥) سورة الأنبياء، الآيات: ١٢-١٥.
(٦) سورة هود، الآية: ١١٦.
(٧) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.